حتى يأتي أفندينا الباشا

ولم يكد محمد علي يلتقط أنفاسه بعد وفاة الألفي، ويتوجه إلى الصعيد لقتال باقي أمراء المماليك، على اعتبار أنها ستكون مهمة سهلة، حتى كان للإنجليز رأي آخر، فقد أرسلوا سفنًا حربية لتهديد الدولة العثمانية في عقر دارها، ولكنها لم تجدي نفعا فقرروا توجيه حملة إلى مصر للسيطرة عليها بمساعدة المماليك، وكان الباب العالي قد حذر الولايات التابعة له ومن بينها مصر، باحتمال هجوم الإنجليز على إحدى الولايات التابعة للدولة بعد فشل محاولات سفنهم في تهديد الباب العالي، وبالفعل لم ترض إنجلترا أن تظهر بمظهر الفشل، فأرسلت حملة يبلغ عددها ٧٠٠٠ مقاتل بقيادة الجنرال ماكينزي فريزر أمام الإسكندرية في ١٧ مارس سنة ١٨٠٧، وهي الحملة التي كان الإنجليز قد وعدوا الألفي بإرسالها، ولو أنها تقدمت في مجيئها أربعين يومًا فجاءت والألفي على قيد الحياة وحوله تلك الألوف من المقاتلة، لكان محتملًا أن يتحول مجرى الحوادث في مصر، بيد أنها وصلت بعد موت الألفي وتشتت أنصاره وانفضاض جيشه.

ورست الحملة عند الإسكندرية، وسلمت المدينة من غير مقاومة تذكر معتمدة على مكر القنصل الإنجليزي، ثم احتلت رشيد بسهولة فظن الإنجليز أنهم في نزهة حربية فانتشروا في شوارع المدينة وحاراتها وألقوا

أسلحتهم وتفيئوا الظلال نائمين ناعمين، وأنهم لكذلك إذا بحاكم المدينة علي بك السلانكي قد أمر جنوده من الأتراك والأعراب وأهالي المدينة، فأُطلقت عليهم النيران من النوافذ ومن فوق الجدران، فبادت الفرقة المقتحمة عن آخرها. وأُرسلت الأسرى ورءوس القتلى إلى القاهرة تأييدًا لخبر الانتصار، وقد وصل خبر الحملة لمحمد علي وهو بأسيوط يحارب المماليك ويطاردهم، فخاف جانب الإنجليز وتلكأ أولًا، ولكن ما لبث أن اتخذ الأُهبة للسفر وترك العلماء المصاحبون له يقومون بعقد الصلح ويجيبون المماليك إلى كل مطالبهم، على شرط أنهم يحاربون العدو المهاجم، وقرر محمد علي الاعتماد على صديقه دروفتي قنصل فرنسا الذي كان يساعده على تدريب الجنود على طرق الحرب الحديثة وبناء الاستحكامات. وقال الجبرتي يصف اجتماع زعماء الشعب ورجال الحكومة للتشاور فيما يجب عمله حيال هجوم الإنجليز في أثناء غياب الباشا عن العاصمة:

"وفي يوم الثلاثاء حصلت جمعية في بيت القاضي، وحضر حسن باشا وعمر بك والدفتردار، ومحمد بك لاظ كتخدا بك والسيد عمر النقيب، والشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير وباقي المشايخ، فتكلموا في شأن حادثة الإنكليز والاستعداد لحربهم وقتلهم وطردهم، فإنهم أعداء الدين والملة ويجب أن يكونوا والعسكر على حال الألفة والشفقة والاتحاد.".

وفي هذا الاجتماع بدأ السيد عمر الحديث قائلًا:

– وصلت إلي اليوم رسالة من السيد حسن كريت، نقيب أشراف رشيد يقول فيها إن الإنكليز لما أوقع بهم في رشيد ورجعوا في هزيمتهم إلى الإسكندرية، استعدوا وحضروا إلى ناحية الحماد قبلي رشيد، ومعهم المدافع الهائلة، فنرجو الإمداد بالرجال والجبخانة، وقد نبهت على الناس أن يستعدوا للجهاد وأن يحملوا ما تيسر من الأسلحة.

فقال الشيخ الشرقاوي:

– لابد في هذه الظروف أن تمتنع العساكر عن التعرض للناس بالإيذاء كما هو شأنهم.

وأضاف الشيخ الأمير:

– كما يجب أن يساعد بعضهم بعضًا على دفع العدو..

قال حسن باشا:

– سننبه على العساكر بالالتزام بكل هذا، ولكن يتحتم علينا تحصين المدينة في غياب أفندينا الباشا.

فقال السيد عمر مكرم:

– إن الإنكليز لا يأتون إلا من البر الغربي، والنيل حاجز بين الفريقين، وإن الفرنسيين كانوا أعلم بأمر الحروب، وأنهم لم يحفروا إلا الخندق المتصل من باب الحديد إلى النيل، ولقد طلبت من الرجال إصلاحه وإعادة حفره،

ووزعت أجرة حفره على مياسير الناس، فجعلت على بعضٍ أجرة مائة رجل من الفعلة، وعلى بعضٍ أجرة خمسين وعشرين، وكذلك أهل بولاق ونصارى ديوان المكس والأروام والشوام والأقباط، ووفرنا المقاطف والغلقان والفئوس والقزم، كما شرعنا في بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبتية.

كان لاظ يتابع الحوار بين العلماء، وخاصة ما يقوله السيد عمر، ويقارن بينه وبين سيده الباشا، إن كلاهما يسمع جميع الحاضرين وما يقولونه باهتمام بالغ، وكلاهما يتحدث بشكل حاسم ولا يتردد في اتخاذ القرار الصائب، ولكن السيد عمر يقول ويفعل في الوقت نفسه، بل إنه يفعل قبل أن يقول، يا له من رجل له من المهابة والوقار ما يجعلك تقتنع بما يقول، ولا تشك لحظة في صدق ما يقول، ولكن لاظ لا يتخيل أن يتم عمل دون علم سيده وإقراره، فماذا يفعل حيال كل هذه القرارات التي يتم اتخاذها، بل وتم تفعيل بعضها بالفعل. واستمر الحديث على هذا النحو، ولاظ بك لا يتكلم كثيرًا، إلى أن قال السيد عمر:

– ولقد جمعت كثيرًا من المجاهدين من أولاد البلد والمغاربة وأتراك خان الخليلي، وكثيرًا من العدوية والأسيوطية لنتوجه في صباح باكر لنجدة إخواننا في رشيد والحماد، فانظروا ماذا تقررون في ذلك.

فرفض لاظ بك وقال:

– لا تذهبوا إلى أي مكان حتى يأتي أفندينا الباشا ويرى رأيه في ذلك.

فلم يسافر السيد عمر ومن اجتمعوا معه، ولكنه لم يتمكن من منع من سافروا بالفعل في توقيت مبكر. وكان السيد عمر يذهب في صبيحة كل يوم تتبعه الجماهير إلى حيث يشتغل العمال في إقامة الاستحكامات وحفر الخندق، وكثيرًا ما يبقى هناك النهار كله في خيمة أُعدت له، وكان حضوره يثير الحماسة والشجاعة في نفوس الناس جميعًا، وقد بذل كل إنسان ما في وسعه لإقامة الاستحكامات، والذي حدث أن الجنرال فريزر كان قد أرسل قوة كبيرة إلى رشيد، على رأسها القائد استوارت لينتقم مما أصابه من الهزيمة الأولى، فنجحت أولًا، ولكنها سرعان ما تقهقرت عند الحماد، وعادت إلى الإسكندرية خوفًا من أن يصيبها ما أصاب سابقتها، وقام فريزر بقطع سد بحيرة مريوط؛ وأُحيطت الإسكندرية بالماء حتى يأمن من أي هجوم مفاجئ، وظل فريزر بالإسكندرية ينتظر ما يمكن أن يقدمه له المماليك خلفاء الألفي من مساعدة، ولم يكن يعلم أن محمد علي قد تفاوض معهم من خلال العلماء ليقفوا بجانبه ضد الحملة الإنجليزية، إذ أقنع العلماء شاهين بك والأمراء أن قيامهم مع الإنجليز مجلبة للشر وفيه خروج عن الدين، خاصة أن الإنجليز قوم متمسكون بشعائرهم الدينية، ويرفعون الصليب على راياتهم وليسوا كالفرنسيين لا يُعرف لهم دين.

ويحضر محمد علي إلى القاهرة، وبعد أن يطمئن على الدفاعات والاستحكامات التي تمت في غيابه، يتوجه بنفسه على رأس جيش لقتال الإنجليز ويصاحبه القنصل الفرنسي في جميع تحركاته، ويكون الصدام الأول مع الإنجليز في صالح الباشا، مما يضطر فريزر لطلب الصلح فيسمح له الباشا بالانسحاب بعد تبادل الأسرى ومداواة الجرحى، وهكذا فشلت حملة فريز واطمأن الباشا، وأرسل للسلطان محمود يحيطه علمًا بما تم؛ فابتهج ابتهاجًا عظيمًا وأرسل رسولًا إلى محمد علي يظهر له ابتهاجه ويهدي إليه سيفًا ثمينًا وخلعة، وكذلك أنعم على إبراهيم وطوسون ولدي محمد علي، وعلى حسن باشا وطاهر باشا والسيد عمر مكرم وعابدين بك وصالح قوش بالرتب والخلع الثمينة.